هدية من دار المعارف
إدارة النشر
غير مخصص للبيع

مكتبتى ٤٧

أحسن شىء أنى حرة

وقصص أخرى

تأليف : يعقوب الشارونى
رسوم : تامر الشارونى

دار المعارف

obeikandl.com

رقم الإيداع ١٥٢١٣/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولي ISBN 977-02-6499-7

٧/٢٠٠٣/١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع)

obeikandl.com

obeikandl.com

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

تنفيذ المتن والغلاف

بالمركز الالكتروني

بدار المعارف

الناشر: دار المعارف– ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة– ج. م. ع

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧– فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikandl.com

عند الباب المؤدي من الطريق إلى صالة الجمعية، وقفت بشعرها المنكوش، وحجمها الصغير، وقدميها الحافيتين، تتأمل في حذر مجموعة الأولاد والبنات، الذين افترشوا الأرض وقد وضعوا أمامهم الأوراق والألوان، وانهمكوا يرسمون.

ولعدة لحظات، تأملها المشرف على برنامج "مواهب في الشارع"، ولاحظ أنها لم تسمح إلا لرأسها فقط بأن يتجاوز الباب، لتتمكن عيناها من التجوال، تتفحصان من بالداخل.

وبسرعة حول وجهه عنه.. كان يعرف أنها لو تنبهت إلى أنه يراقبها، فقد تسحب رأسها بسرعة إلى الخارج، وتختفي، وقد يكون ذلك إلى غير رجعة.

ودارت هي بعينيها تتأمل الأولاد.. بعضهم يركع على ركبتيه، وبعضهم يجلس متربعًا وقد انحنى إلى جانب نحو ورقة الرسم التي وضعها على الأرض، وبعضهم وقف وأسند الورقة على الحائط.

obeikandl.com

كان معظمهم من الأولاد.. سبعة أو ثمانية، ومعهم بنت واحدة.. لا بل بنتان، لكن عيني الوافدة الجديدة لم تلاحظا في البداية البنت الثانية، لأن شعرها كان قصيرًا، وكانت تركع على الأرض.

ورفع أحد الأولاد رأسه، وألقى على الواقفة عند الباب نظرة سريعة. ولكنه، وكأنما قد اعتاد هذه النظرات المستطلعة من عند الباب، عاد بسرعة لينشغل مع ألوانه.

لكن واحدة من البنتين والتي كانت تركع على الأرض، رفعت رأسها، والتفتت إلى الواقفة عند الباب، والتقت عيونهما.

وفجأة وقفت التي كانت تركع، وهي تواصل النظر إلى الواقفة عند الباب، كأنما لتشجعها على الدخول.

وتحركت المستطلعة، وأصبح جسمها كله ظاهرًا في فراغ الباب المفتوح.

وعندما اطمأن المشرف إلى أن تلك الدعوة للدخول قد وصلت، حول وجهه ناحية

البـاب، وقـال للواقفـة هنـاك: "إذا أردت، ادخلـي، وارسـمي معهم".

قال هذه العبارة كأنها وردت على ذهنه عفو الخاطر، ثم تحول باهتمامه إلى مجموعة الأطفال الذين يرسمون، كأنه نسى فجأة تلك التي ألقى إليها تلك العبارة.

كان يعرف أن تلك الوافدة الجديدة، مثل غيرها، ترفض بشدة أن يفرض عليها أحد اختياره، وأنه لابد أن يتركها مقتنعة أنها جاءت بمحض إرادتها، وأنها تدخل المكان استجابة لدوافعها الشخصية، وليس استجابة لأي رغبة يبديها الآخرون، وبخاصة الكبار!

ولم تستغرق الصبية الجديدة وقتًا طويلاً في التردد، بل تقدمت في خطوات ثابتة، حتى وقفت بجوار البنت التي سبق أن وجهت إليها الدعوة الصامتة للدخول.

وبجوار المشرف، كانت توجد مجموعة من الأوراق والألوان، لكنه انتظر.

وبسرعة وجد البنت التي وجهت الدعوة تقترب ناحيته، ثم مدت يدها، وسحبت بنفسها إحدى أوراق الرسم، وعادت بها إلى الوافدة الجديدة.

وعندما جلست صاحبة الدعوة على الأرض، جلست بجوارها الوافدة الجديدة أيضًا.

وتأملت الوافدة الجديدة كيف تتحرك أصابع الأطفال بالألوان على الأوراق، ثم حولت حولت عينيها إلى أصابع الألوان، وتوقفت عند قطعة من ألوان الشمع حمراء اللون.

وكأنما لا تصدق أن هذه القطعة الملونة من الشمع يمكن أن تترك أثرًا على الورق، بدأت في تجربة الضغط بقطعة اللون فوق الورق.

وظهر كأنما فوجئت عندما وجدت خطًا أحمر قد ظهر على ورقتها. وتمهلت لحظة، ثم رسمت بجوار الخط الأول خطا آخر.

وحولت بصرها ثانية إلى بقية الأولاد والبنات، فوجدتهم منهمكين في رسومهم. لكن البنت التي وجهت إليها الدعوة، قدمت إليها قطعة من

ألوان الشمع صفراء اللون وهي تقول: "الألوان كلها حلوة".

وركعت الوافدة على الأرض، واستغرقت في استخدام مختلف الألوان.

لم يسألها المشرف عن اسمها، ولا من أين جاءت أو من هم أهلها، ففي بداية عمله في الجمعية، أخطأ وسأل بعض الوافدين الجدد مثل

هذه الأسئلة، وكانت النتيجة أن معظمهم ترك المكان، ولم يعودوا إليه ثانية. وإن كان بعضهم قد أجاب بحكايات ملفقة نسجوها من خيالهم.

***

ولم يصدق المشرف عينيه، عندما وجد تلك الوافدة الجديدة، صاحبة الوجه الشاحب الطويل، والعينين المسددتين نحوه في قوة، والشفتين المضمومتين في عزيمة وإصرار، تقف أمامه، تعرض عليه في ثقة، لوحة جذبت ألوانها انتباهه بشدة.

ولأول مرة يخالف ما اتفق عليه مع نفسه من عدم إلقاء أية أسئلة، خصوصًا في المرات الأولى التي يأتي فيها إليه أحد هؤلاء الأطفال، وقال:

"رسمك جميل جدًا، هل هذه أول مرة ترسمين؟"

ولم تجب الفتاة، لكن ظل ابتسامة ظهر على وجهها، فقد أدركت أن ما تركته ألوانها على الورقة، قد أعجب "الأستاذ".

واختارت أن تجيب عن سؤاله بطريقتها الخاصة.

قالت:

"سأجيء غدًا".

أجاب المشرف: "ودائمًا ستجدين الباب مفتوحًا"

***

ثم همس المشرف إلى نفسه: "شيء مدهش أن تكون المرة الأولى التي تمسك فيها هذه الفتاة بالألوان، ومع ذلك تقدم هذا التعبير القوى، في تلك اللوحة متينة البناء، ذات الألوان المتناسقة الساطعة!!".

obeikandl.com

وعندما تلفت حوله، لم يجدها.

وكما ظهرت فجأة، خرجت فجأة.

***

ولم يكن المشرف يتوقع عودتها قبل أسبوع أو عشرة أيام كما يحدث مع غيرها، لذلك فوجئ عندما وجدها تدخل في اليوم التالي، وتتجه مباشرة نحو مجموعة الأوراق، وتسحب منها واحدة، ثم ذهبت إلى ركن من أركان الصالة، وانفردت بنفسها، وانهمكت في الرسم.

وللمرة الثانية كان "وجه فتاة" هو موضوعها الذي انهمكت تعبر عنه.

كان الوجه هذه المرة ينطق بشخصية تحرص على الاستقلال، لكن نظرة العينين كانت فيهما الحيرة والأسى.

وتسللت الفتاة التي سبق أن وجهت الدعوة للوافدة الجديدة، ووقفت تتأمل ذلك الوجه الذي أبدعته الألوان، وسمعها المشرف تقول: "رسمك حلو جدًا".

ونظرت إليها الوافدة الجديدة وقالت:

"أنا أحب الألوان " ، و لعلها لم تكن تعرف كلمة " الرسم"

وعنـــدما جـــاءت تلـــك الفتـــاة الموهوبـــة فـــي الرســـم

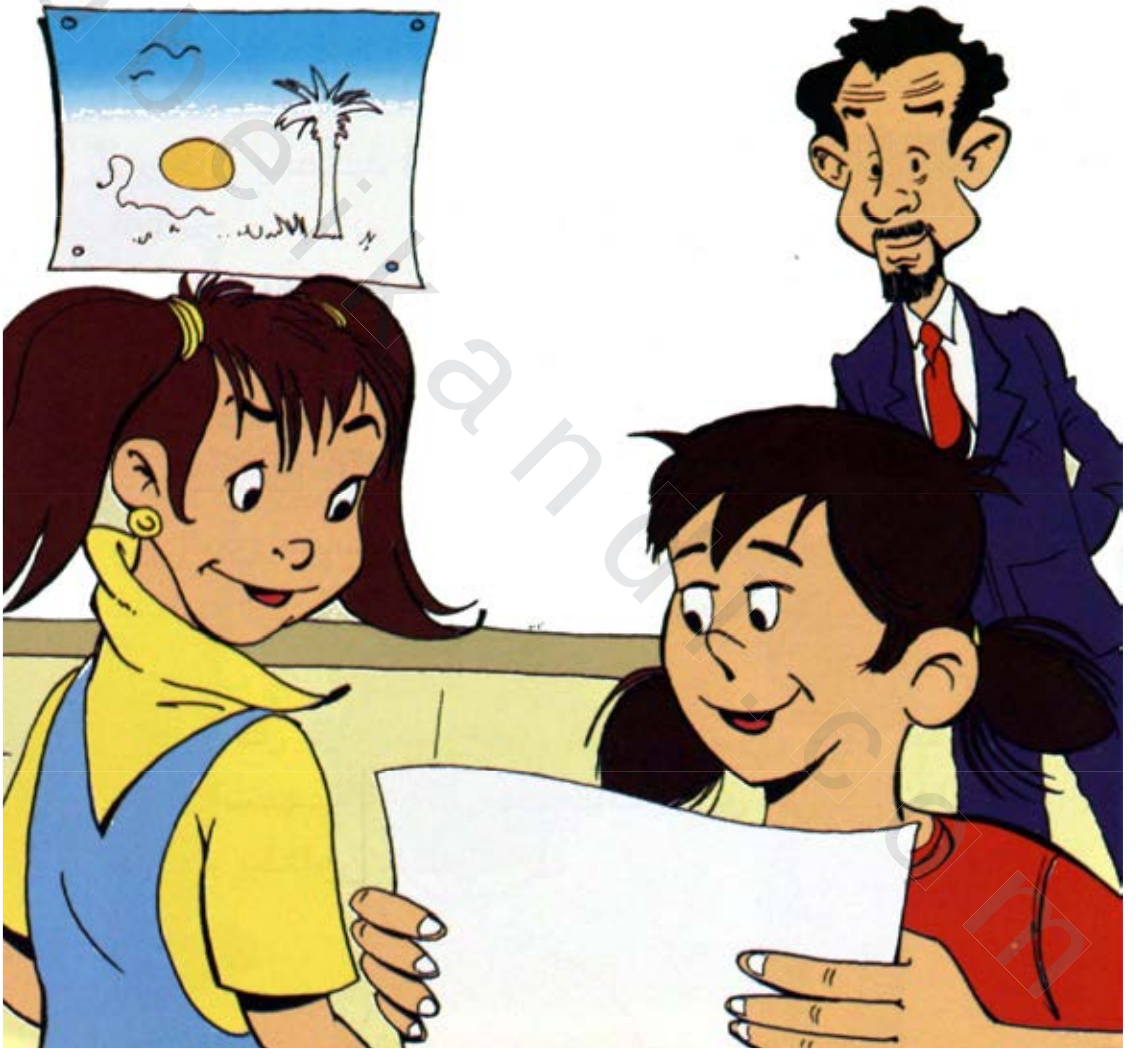

للمرة الثالثة في صباح اليوم الثالث، فوجئت وقد علقهما المشرف بمشابك فوق الحبل الممتد على طول حائط الصالة.

وكانت هناك رسوم أخرى لأطفال آخرين، لكنهم تجمعوا حول رسوم الوافدة الجديدة.

قال أحدهم وهو يشير إلى أحد الرسمين: "أنا أعرف صاحبة هذا الوجه!.

وكان يقصد أن يقول، إنه يعرف مثل تلك الملامح.

ثم أضاف: "سيعلقون رسومك في المعرض".

عندئذ قال أحد الأطفال: "رسمك جميل يا...".

ثم أضاف بسرعة: "ما اسمك؟"

وتلفت الوافدة الجديدة حولها، لتعرف جيدًا من الذي سيسمع إجابتها، ثم سمحت لهم، الآن فقط، أن يعرفوا اسمها الأول وحده... قالت: "اسمي.. مني".

كان كل الأولاد والبنات يفهمون جيدًا لماذا تكتم اسمها، وكل معلومات أخرى عن حياتها، فكلهم يفعلون ذلك.

obeikandl.com

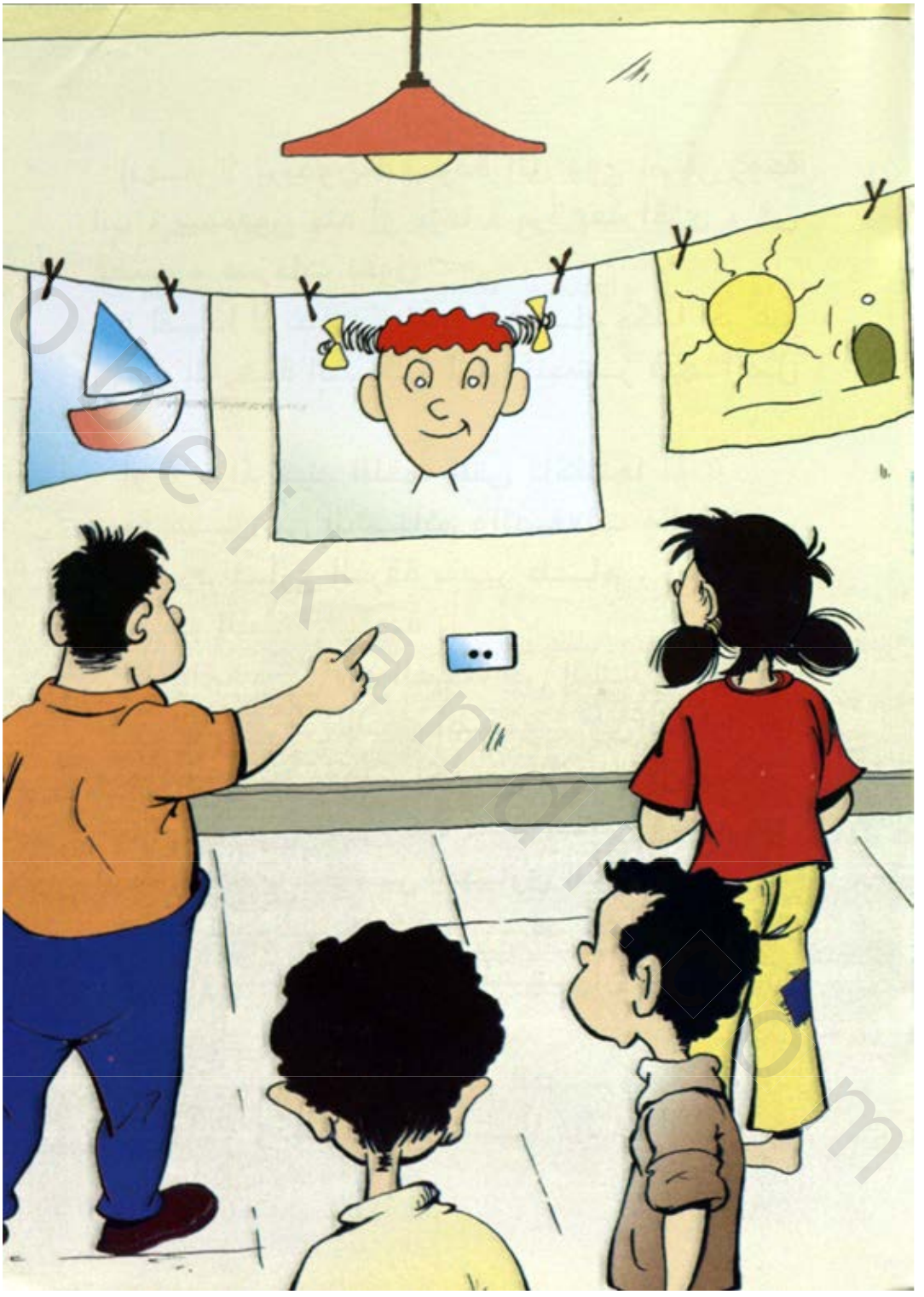

إنهم لا يريدون العودة إلى زوج أم أو زوجة أب، يسمعون منه أو منها، مرة أخرى، في غضب، صرخات تقول:

"لماذا لا تذهب لتجد لنفسك مكانًا آخر غير هذه الغرفة الضيقة التي تنحشر فيها مثل السردين؟"

أو "حرام فيك اللقمة التي تأكلينها!!"

مع سيل من الشتائم والصفعات والركلات، والطرد خارج الغرفة بغير طعام، أحيانًا في منتصف الليالي الباردة.

كانوا يقولون: "الحياة في الشارع صعبة، لكن الإذلال في البيت أصعب.. في الشارع نجد مجموعة نعيش معها، لكن من السهل أن ننفصل عنها.. وفي الشارع نجد مكانًا نختفي فيه، حتى لو كان إحدى مواسير المجاري الضخمة، أو ركنًا مظلمًا تحت أحد الكباري.. قد يكون باردًا أو رطبًا أو مخيفًا، لكن من الصعب أن يعرف غيرنا الطريق إليه".

والتفتت "منى" إلى المشرف، وعادت تقول، وكأنها تمنح شيئًا غاليًا: "الآن من

الممكن أن يعرفوا أن اسمي منى".

ثم تمهلت قبل أن تضيف، وهي تنظر إلى الألوان:

"وأحسن شيء هنا، أنني أرسم ما يعجبني بحرية!!"

obeikandl.com

شيء احترق في داخلي

في المكتبة العامة، جلس البنات والأولاد حولي، يتبادلون الحكايات عن الحمامة التي ساعدت النملة وأنقذتها من الغرق، وعن الكلب الذي أيقظ صاحبه ليحميه من الثعبان، وعن النملة التي جعلت في نفسها طريقًا بين حائط وشجرة، ليعبر فوقها جماعة من النمل إلى حيث الغذاء الوفير.

وبعد أن انتهى اللقاء، التف حولي عدد من الأطفال، يطلبون توقيعي على نسخ من كتبي أحضروها معهم.

وفجأة لمحت فتاةً في الثانية عشرة من عمرها، تقف وحدها على جانب الممر المؤدي إلى الخارج.

وأحسست أنها تريد أن تقول شيئًا. لم يكن

معها نسخة من كتاب أوقع عليها، ولم تكن من بين من شاركوا في الحكايات أثناء اللقاء.

قلت لها: "ما الحكاية التي أعجبتك أكثر من غيرها، من بين الحكايات التي سمعناها داخل المكتبة اليوم؟"

قالت في تردد: "عندي حكاية لم أستطع أن أحكيها أثناء اللقاء".

تأملتها لحظة وأنا أسأل نفسي: "ما الذي يمكن أن يمنعها من أن تحكي حكاية وسط زملائهما؟! هل هو الخجل، أو قلة الثقة بالنفس، أو الخوف من رد فعل غير مرغوب فيه من الأولاد والبنات؟"

ثم تنبهت بسرعة من أفكاري، وقلت لها: "وأنا أحب أن أسمع حكايتك".

وعلى أحد مقاعد الحديقة المحيطة بالمكتبة، جلست أستمتع وهي تحكي.. قالت:

لي أخت أكبر مني، تجيد معظم أعمال المطبخ، وتساعد والدتنا في صنع عدد كبير من أنواع الحلوى والفطائر. وقد تعلمت أختي هذه

المهارات من والدتي. وكلما وجدت الأسرة تظهر استحسانها لما تصنعه أختي، أقول لنفسي:

"متى يكون في استطاعتي أن أدخل أنا أيضًا إلى المطبخ، وأصنع مختلف أنواع الحلوى والفطائر، لأفوز بإعجاب أبي وأمي والأقارب مثل أختي؟"

وهكذا أصبحت أهتم كثيرًا بمراقبة أمي وهي تعمل في المطبخ، خاصة وهي تضع السمن على الدقيق مع البيض والسكر، لتصنع لنا بعض أنواع "الكيك والفطائر".

كنت أراقب في صمت أحيانًا، وأسأل في أحيان أخرى، لأتأكد من الكميات المستخدمة وخطوات العمل. وكانت والدتي تترك لي أحيانًا عملية ضرب البيض أو "تقطيع قطع العجين" قبل وضعها في الفرن.

وذات يوم طلب والدي من والدتي أن تصنع له "كيكة" يحبها.

قلت لأمي: "يا ست ماما، هل يمكن أن تتركي المطبخ لي وحدي اليوم، لأصنع "الكيكة" التي طلبها والدي؟"

صاحت أختي: "هل تظنين نفسك أصبحت كبيرة إلى هذا الحد؟!"

وقالت والدتي: "وماذا يحدث إذا أفسدت كل شيء؟"

قال والدي: "اتركوها تجرب!!"

***

ودخلت المطبخ، ورفضت أن تطل أمي أو أختي على ما أفعل، لكي أتجنب مزيدًا من تعليقاتهم الساخرة. وقمت بكل الخطوات بنجاح، وامتلأت الصينية بعجينة "الكيكة"، فأشعلت فرن البوتاجاز، ووضعت فيه الصينية.

ويبدو أنني لم أضبط الحرارة كما يجب، فقد شممت بعد قليل رائحة احتراق!

دق قلبي بعنف، وأنا أندفع لأفتح باب فرن البوتاجاز، وأخرج "الصينية" منه.

لكن يبدو أنني تأخرت، فقد وجدت سطح "الكيكة" وبعض جوانبها قد احترق.

وسرعان ما وجدت والدتي وأختي تقفان على باب المطبخ!!

قالت أختي: "قلت لك إنك مازلت صغيرة للقيام بهذا العمل!"

وقالت أمي: "هيا نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه!"

وبدأنا محاولة يائسة، لنكشط بالسكين الأجزاء التي احترقت.

***

بعد قليل، وصل أبي عائدًا من عمله. لم أستطع الإسراع إلى مقابلته لأقول له إنني صنعت "الكيكة" التي يحبها، لكن أمي تبرعت بأن تقول بغير مقدمات: نوال أحرقت "الكيكة"!!

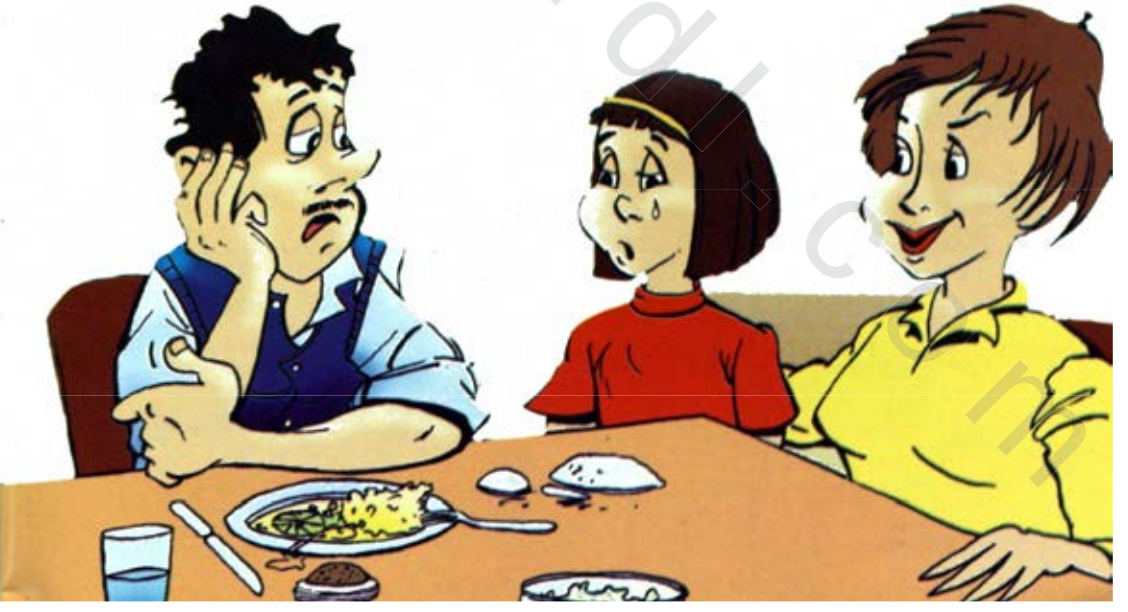

obeikandl.com

وأحسست كأن سكينًا قد انغرس في قلبي!

وتظاهر أبي بأنه لم يسمع، لكن أمي جلست بجواره وهو يتناول طعام الغذاء، تضحك وهي تحكي له تفاصيل المغامرة الفاشلة التي قامت بها في المطبخ.

قالت: "لقد ألقينا بنصف "الكيكة" الذي احترق، لكن لا بأس، يمكن أن نتحمل طعم الباقي". وضحكت..

وأسرعت أذهب إلى غرفتين، حتى لا أسمع بقية الحديث.

***

وبعد قليل، رن جرس الباب وذهبت لأفتحه. كانت جارتنا تسأل عن عنوان "الترزي" الذي تتعامل معه والدتي.

وجاءت والدتي. وكأنما عن غير قصد، قالت الجارة أثناء الحديث: "لقد شممت عندكم رائحة شيء يحترق".

ومرة ثانية، غاص قلبي بين ضلوعي.

وانطلقت أمي تضحك وهي تقول: كانت حريقة صغيرة داخل فرن"البوتاجاز"!

هتفت الجارة في فزع: "حريقة؟!"

ضحكت أمي وهي تقول: "نوال أشعلت النار في "كيكة" كانت تصنعها!".

ونظرت الجارة نحوي وهي تضحك وتقول:

"تعيشي وتحرقي غيرها".

وكتمت دمعة كانت توشك أن تنزل من عيني.

obeikandl.com

وعندما رن جرس التليفون، عرفت أن خالتي هي التي تتحدث.

وفوجئت بوالدتي تضحك وهي تقول لها:

البنات"عايزة" تكبر بسرعة، وها هي قد أحرقت "الكيكة"!!

وفي هذه المرة بكيت فعلاً، وإن كنت قد حرصت على إخفاء مشاعري عن والدتي وأختي.

وهكذا لم تمض اثنتا عشرة ساعة، حتى كان كل أفراد أسرة أبي وأسرة أمي، وكل الجيران، قد عرفوا القصة.

***

ولم تفهم والدتي السر، في أنه، بعد ذلك اليوم، عندما كانت تطلب مني أن أساعدها في شيء يتعلق بالمطبخ، كنت أقول: "حاضر".

لكنني أتكاسل تمامًا عن أن أمد يد التعاون في أمور الطهو.. لقد احترق شيء في داخلي!!

ويومًا بعد يوم، أصبحت أختفي من أمام عيني والدتي عندما أجدها قد دخلت المطبخ، أو أتظاهر بأنني منهمكة في مراجعة دروسي.

obeikandl.com

والآن، انقطعت صلتي تمامًا بأية صورة من صور التعاون في شئون الطهو والحلوى والفطائر.

***

ونظرت نوال نحوي وهي تتساءل: "إذا كنتم تهتمون بأن نحكي لكم حكايات عن التعاون، فأرجو أن تهتموا بأن يحكي لكم الآباء والأمهات حكايات عن التشجيع".

ولم أجد شيئًا أقوله لنوال، إلا الوعد بأنني سأجعل أكبر عدد من الآباء والأمهات، يستمعون إلى قصتها.

obeikandl.com